المختصر

فيلسوف الإسلام .. الكاتب المبدع .. المفكر المجتهد .. الزعيم السياسي .. الثائر المناضل .. القائد المحرّر .. المصلح المجدّد .. ذلك هو على عزت بيجو فيتش الرئيس الأسبق لجمهورية البوسنة .. مجموعة من الشخصيات المبهرة فى شخص واحد إجتمعت في سيرته خصائص: التواضع مع الشموخ .. التسامح مع الشجاعة فى الحق .. الحكمة مع الثورة .. وقدرة نادرة على الصفح والعفو عند المقدرة ..

رحل عن عالمنا في يوم الأحد التاسع من شهر أكتوبر عام2003 ،وكان فى ذلك الوقت قد أكمل من عمره الزمني ثمانية وسبعين عاما .. أما حياته فقد كانت أعمق من هذا وأعرض، فهى تشمل إلى هذه السنوات حياته الفكرية ونشاطه وفاعليته وإنجازاته، فحياته تنطوى على أعمار أخرى وتتّسع لحيوات كثيرة لا حياة واحدة ، فهو بحق رجل بأمّة ، ومن أراد أن يفهم هذه الحقيقة عليه أن يتصفّح سجل أفكاره وكتاباته وأعماله وينظر مليّا فى مسيرة حياته ونضاله ...

على عزت بيجوفيتش طراز نادر فريد من البشر .. ونموذج حى لاستثمار الوقت واستثمار القدرات و المواهب التى أودعها الله فيه .. فهو لم يتوقف لحظة من حياته دون عمل نافع حتى وهو فى السجن يقضى عقوبة عن جرائم لم يرتكبها (سوى أنه فيلسوف ومفكر إسلامى مناضل عنيد) ففى السجن كتب أحد أبدع أعماله بعنوان: (فرار إلى الحرية) سطّرها فى بضعة آلاف من الصفحات .. أودع فيها أعمق تأملاته فى الحياة والفن والفلسفة والدين والسياسة والأخلاق .. وأعاد النظر فى قراءاته السابقة .. وتقييمه للشخصيات والمواقف التى مرت به فى حياته ...

لم يملأه السجن مرارة على الحياة والناس .. ولم يسلمه لليأس أوالانسحاب والاكتئاب، بل زاده إيمانا بقيمة الحرية الإنسانية ، وجعله يوقن بان الحرية هى أعظم هبة منحها الله للإنسان ، وأن الإنسان مسؤل عنها أمام واهبها الأعظم ، وأن الدفاع عن الحرية أنبل مهمة يؤديها الانسان ليس فقط نحو نفسه إنما أيضا نحو الآخرين ولو كانوا خصومه .. وليس هذا كلام خطابة او إنشاء بل واقع معروف ومسجل فى تاريخ الرجل ، فبعد أن تم انتخابة وتوليه رئاسة الجمهورية سنة 1990م .. لم يكن فد انقضى على خروجه من السجن سنة واحدة ، ظن بعض الناس أن فرصتة قد واتتة لينتقم من أعدائه الذين لفقوا له التّهم وزوروا شهادة الشهود وحكموا علية بالسجن مع الأشغال الشاقة ، ولكنه لم يفعل ، فلما ساله الصحفيون: ألا تنتقم للظلم الذى وقع عليك ..؟ قال: "لا انتقم الآن ولا بعد الآن .. نعم إننى لازلت أشعر بالظلم الشديد فى أعماق نفسى ، ولا أستطيع ان أحملها على نسيان التجربة المريرة .. ولا نسيان الوجوه الكريهة التى ارتبطت بها ، ولا خِسّة الضمائر والنفاق والكذب الذى أحاط بالأمر كله، ولكنى لا انتقم أبدا .. فأنا الآن مسئول عن حياة هؤلاء الناس جميعا وعن حقهم فى الحياة والحرية ..." وبالفعل كان عدد كبير من هؤلاء الخصوم لا يزالون فى وظائفهم خلال فترة حكمه .. لم يمسسهم بسوء .. أما رأس الجريمة وزير الداخلية .. وبعض القضاة المتحيّزون للسلطة الصربية فقد فرّوا من البوسنة .. وكنسهم التاريخ فى تراب النسيان ...

مثقف وثائر : لم تكن حياة عزت بيجوفيتش هانئة ولا سهلة ، رغم أنه ينتمى إلى أسرة عريقة كانت تتمتع بالغنى والوفرة فى عهد يوغسلافيا الملكية .. وكانت تتمتع بالكفاية والستر فى

عهد يوغسلافيا الشيوعية .. كانت حياتة مليئة بالاشواك ، حافلة بآلام تكاد تكون متصلة الحلقات ، فيما عدا فترات وجيزة من طفولته تنسّم فيها نسمات من السعادة والرضا ، مما سجّله في سيرته الذاتية التى نُشِرت قبل وفاته ببضعة أشهر .. هذه الآلام ما كانت تأتيه من مصدر شخصى ولا أُسريّ ولا حتى من دائرة العمل ، فقد يسّر الله عليه هذه المجالات الثلاثة ، وإنما كانت آلامه تتصل بمحيطه السياسي والأيديولوجي الرافض لهويته: أولا كمسلم وثانيا كمفكر مناضل من أجل الحرية .. فى دولة شيوعية قائمة على الإلحاد والدكتاتورية ...

لقد أدرك فى وقت مبكر من حياته أن شعبه يتعرض لظلم واضطهاد مستمرّين وبدرجات متفاوتة من الحدة والبطش .. سواء فى عهد يوغسلافيا الملكية أو الشيوعية ، ولعل هذا الإدراك كان هو الحافز الأكبر له على أن يغوص فى أعماق الفكر الأوروبى حتى أنه استطاع ان يقرأ ويستوعب أهم الأعمال الفلسفية وأكثرها أثرًا فى تشكيل الثقافة الأوربية قبل أن يبلغ سن التاسعة عشرة من عمره .. يقول عن هذه المرحلة فى سيرته الذاتية : "لم أكن فى بداية الأمر أستعذب فكر الفليسوف الألمانى هيجل وإن كنت قد غيّرت رأيى فيه بعد ذلك .. أما أكثر ما تاثرت به من فلسفات فيأتى على رأسها فلسفة "هنرى برجسون " فى كتابه " التطور الحى" .. وفلسفة " كانْت " خصوصا كتابه " نقد العقل الخالص " ، وكتاب من مجلدين للفيلسوف الألمانى" شبنْجلر " بعنوان " تدهور الغرب " ...

هذا الوعى المبكر بالظلم الواقع على شعبه كان وراء إتجاهه –فى المرحلة الجامعية – إلى دراسة القانون ، حتى يتمكن من الدفاع عن شعبه .. لذلك كله آثر النضال الفكرى العلنى ومقارعة الحجة بحجة أقوى منها ، ومن جرّاء هذه الشجاعة الفكرية تعرض للسجن مرتين فى حياتة : ففى الأولى حُكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام (مع الأشغال الشاقة) فيما بين سنة 1946 الى سنة 1949 ، فى هذه المرة كان سبب سجنه أنه تصدّى للرد على الهجوم الشرس الذى شنّه الشيوعيون فى بداية حكمهم على الإسلام والمسلمين فى البوسنة ، فقد وجد فيه هجوما ظالما مليئا بالافتراءات والأكاذيب والجهل بالإسلام ...

تجربته فى السجن مكّنته من الإطّلاع على نماذج من البشر أكّدت لديه فكرته الفلسفية عن وجود هوّة واسعة فى المجال الإنساني بين من لديهم قدرة خارقة على إرتكاب أبشع الجرائم.. وبين آخرين ترقى أرواحهم وتسمو إلى أنبل مستويات التضحية بالنفس .. والقدرة الخارقة على الصفح والمغفرة بلا حدود .. وكان بيجوفيت لا شك أن على عزت كان ثائرا متمردا ، ولكن ثورته كانت أبعد ما يكون عن الغضب الهائج فقد كانت حكمته حتى فى هذا السن المبكر أسبق من ثورته .. وكانت شجاعته فى الحق وقوة فكره ومنطقه وصلابة إرادته بواعث له على المواجهة العلنية ، وكوابح له فى نفس الوقت ألا يلجأ الى التدابير السرية والعمل تحت الأرض .. فقرر مع مجموعة من المفكرين المسلمين أن يردّ على هذه الحملة ويفنّدها بالحجة والبرهان ، وأن يكون هذا فى إجتماع جماهيرى حاشد بمدينة سراييفو (عاصمة البوسنة).....حيث استقبلته الجماهير بالترحاب وصفّقوا له هاتفين بحماس منقطع النظير ، وجاء رد السلطات الشيوعية فوريّا حيث قام رجال الأمن بإلقاء القبض عليه هو وزملائة .. وهم لايزالون على منصة الخطابة، وأودعوهم السجون بتهمة التحريض والثورة المضادة ...

كان لتجربة السجن آثار واضحة فى مواقف على عزت بيجوفيتش كإنسان وزعيم وحاكم لشعبه .. فعلى المستوى الشخصى عمّقت هذه التجربة لديه الوعى بقيمة الحرية الإنسانية وقداستها ، على النحو الذى سبق أن اشرنا إليه ، ويتفرع عن هذه الحقيقة أنه فى المجال الشخصى كان يتمتع بقدرة خارقة على الصفح والمغفرة بلا حدود .... حالة تعجّب لها خصومه ولم يفهمها أعداؤه .. فذهبوا فى تفسيرها شتى المذاهب

أجلْ.. كان العفو والصفح من أبرز سمات عزت بيجوفيتش على المستوى الشخصى .. ولكن موقفه كرئيس لبلاده وأمين على وطنه فى مواجهة العدوان الصربي الغاشم كان حاسما صلبا قاطعا .. فلم يدّخر وسعا ولا وسيلة من وسائل تدعيم القوة لشعبه فى رد العدوان الصربيّ إلا اتخذها ، او سعى جاهدا للحصول عليها ...

ولكنه فى كل الأحوال لم يستسلم لغواية الإنتقام .. وكانت أسباب الإنتقام ودوافعه كثيرة ومتكررة .. كان أعداؤة يتفننون فى أساليب القتل والتنكيل والحصار والتجويع والإذلال .. على نفس النمط الصهيونيّ الذى شاهده العالم فى غزة الفلسطينية .. وكانت القيادات الصربية تدرّب جنودها وتدفعهم دفعا لارتكاب المجازر ضد المدنيين وانتهاك الأعراض وتمزيق الأجساد ، بل كانت تعاقب المتراخين فى تنفيذ الأوامر ، بينما كان عزت بيجوفيتش يكبح جماح الغضب المتأجج فى صدور جنوده وضباط جيشه .. ويمنعهم من الإنتقام أو ممارسة العقوبات الجماعية ضد الصرب ...!! كانت نصائحه وأوامره المشدّدة إلى جنوده: " لا تمسّوا الأطفال ولا النساء ولا الشيوخ بسوء .. لا حرق للمنازل أو الزروع أو الحيوانات ..." وكان الصرب يمارسون كل هذه الجرائم ضد المسلمين ببشاعة لا نظير لها إلا ما فعله الإسرائيليون فى فلسطين وقطاع غزة ...

بيجوفيتش الفيلسوف:

لم يكن بيجوفيتش فحسب هو الرئيس الأسبق لدولة البوسنة ، ولا زعيمها السياسى، ولا قائدها الفكري والروحي الذى واجه بها ومعها أبشع حرب عدوانية دموية وقعت فى أوربا بعد الحرب العالمية الثانية .. حرب كان يُقصد بها إبادة شعب فيما سُمّيَ بحرب (التطهير العرقي) .. لم يكن على بيجوفيتش كل هذا فحسب وإنما كان أيضا صاحب اجتهادات بالغة الأهمية فى تفسير ظاهرة الإنسان فى تركيبتها الفريدة وارتباطها المبدع بما سمّاه بيجوفيتش بثنائية (الإنسان والطبيعة) ، هذه الظاهرة هى نقطة إنطلاقه الفكري وهي بالتالي الركيزة الأساسية لمنظومته الفلسفية وإشراقاته الفكرية المبدعة ... هـ فى ذات الوقت يستفيد من اجتهادات المفكرين الغربيين المدافعين عن الإنسان، ولعل إيمانه بالإنسان (الذى ينبع من إيمانه بالله وإدراكه لثنائية الطبيعة البشرية) هو الذى شد من أزره إلى أن كتب الله له ولشعبه النجاة، وهو الذى مكّنه من أن يلعب هذا الدور المزدوج... دور المجاهد والمجتهد، دور الفارس والراهب معا ...

يلاحظ المسيرى أن استيعاب بيجوفيتش للفلسفات الغربية، ليس كإلمام أساتذة الفلسفة الأكاديميين الذين يعرضون أفكار هذه الفلسفات المختلفة عرضا محايدًا .. وإنما هو استيعاب المتفلسف الحقيقى الذى يقف على أرضية فلسفية راسخة .. ويطل على الآخر فيدرك جوهر النموذج المعرفى الذى يهيمن عليه.. فنراه يتحدث بطلاقة غير معتادة عن نيتشه وياسبرز وكيركجارد، ويعبّر

عن هذا فى سطور قليلة تبين مدى استيعابه لرؤاهم الفلسفية، وتمكّنه من الوصول إلى أعماقها ليرى بنيتها المادية العدمية المدمرة، أو بنيتها الإيمانية الكامنة ...

إننا ندرك أن فهم النظام الرأسمالي بعمق قد أصبح جزءا من تجربة الكثيرين من مثقفى العالم، لكن الذى يميز على عزت بيجوفيتش عن هؤلاء جميعا أنه قد جمع إلى فهمه و استيعابه للفكر لرأسمالي أنه عاش فى إطار منظومة ماركسية إشتراكية، فأدرك منذ البداية أننا لا نرى فى حقيقة الأمر منظومتين مختلفتين، واحدة رأسمالية وأخرى اشتراكية، وإنما نتحدث فى واقع الأمر عن [نموذج معرفى] واحد كامن يأخذ شكلا إشتراكيا فى حالة الاشتراكية، وشكلا رأسماليا فى حالة الرأسمالية، ومن ثَمّ فهناك رؤية واحدة تنبع منها وترتكز عليها كلا المنظوماتين المتصارعتين المتنازعتين ... من هذه الناحية لا تختلف التجربة الرأسمالية على الإطلاق عن التجربة الاشتراكية، إذ يصدر النمطان عن فكرة أساسية هى " الإنسان الطبيعى " بمعنى أن الإنسان له أصل واحد هو " المادية الطبيعية الكامنة " ...

ينتقل بيجوفيتش إلى نقد هذا النموذج المادي الإلحادي فيبرز تناقضه الأساسي.. وينبّهنا إلى أن الذين يعتنقون هذا النوع من الفكر عندما يحاولون تطبيقه فى واقع الحياة وبناء المجتمعات يصطدمون باستحالة لا يمكن تجاوزها .. ويضرب لنا هنا بماركس والماركسية كنموذج لهذا التناقض فيقول: إن ماركس رغم أنه ملحد، لكنه على حد قول "برتراند رسل" قد بشّر بأمل كونيّ لا يمكن تبريره إلا إذا كان صاحبه من المؤمنين بالألوهية، أى بشىء متجاوز للواقع المادى المباشر .. بل إن ماركس قد حوّل الرأسمالية والطبقة البروليتارية إلى رموز حية للشر والخير .. كذلك فإن الماركسية فى إطارها المادي "تتبنى فكرة الحتمية التاريخية، ولكن كحياة معيشة كان لابد أن تتخلى عن هذه الفكرة ".

نحن نعلم أن التصوّر الداروينى للإنسان هو تصوّر مادي صرف ، فكل المخلوقات عند دارون ترجع إلى الأشكال البدائية للحياة (الأميبا)، وأن هذه الأميبا قد ظهرت بدورها نتيجة عملية طبيعية كيميائية [مادية] .. وإذن فالإنسان (من هذا المنظور) ليس أكثر من حيوان تطوّر من المادة إلى الأميبا ثم تطوّرت الأميبا حتى وصلت إلى القردة العليا، ومنها إلى الإنسان "الذى اتجه فى تطوره نحو الكمال الجسمى .. ومنه إلى الذكاء الخارق .. فالتطور من حيث هو حيواني وخارجي فى جوهره بسيط ومنطقى أو نفعى ووظيفي، لأنه ظل محدودًا فى نطاق [الطبيعة/المادة]". ولكن بيجوفيتش يرى أن "التطور" بطبيعته (وبغض النظر عن درجته فى التعقيد أو الحقبة الزمنية التى

استغرقها) لم يستطع أن ينتج إنسانا، وإنما مجرد حيوان مثالى، قادر على التحرك داخل الجماعة بكفاءة عالية لتحقيق هدف البقاء المادى. ولا شك أن هناك بكل تأكيد أشياء مشتركة بين الإنسان و الحيوان، "فهناك إحساس وذكاء ووسيلة أو أكثر من وسائل الإتصال، وهناك الرغبة فى إشباع الحاجات، والعيش فى مجتمع، و كذلك بعض أشكال من الاقتصاد".. وبالنظر من هذه الزاوية لا نجد فى الإنسان شيئًا لا يوجد فى المستويات العليا من الحيوانات الفقارية والحشرات. والفرق بين الإنسان والحيوان هنا ، حتى بعد "تطور" الإنسان، إنما هو فرق فى الدرجة والمستوى والتنظيم وليس فى النوع، فليس هناك (حسب هذه النظرية المادية) جوهر إنسانى متميز عن الحيوان ...ولكن الإنسان فى واقع الأمر مختلف بشكل جوهرى عن هذا الإنسان الطبيعى/المادى، فلا يمكن إختزاله فى مجرد وظائفه البيولوجية، إذ أن فيه "شيئًا" ينقله من عالم الضرورة والحتميات الطبيعية والسببية المطلقة والمنفعة المادية.. إلى عالم الحرية والاختيار والقلق والتركيب والتضحية ... عند هذه النقطة من تحليلات بيجوفيتش الجدلية نرى أنفسنا ننتقل تلقائيا إلى فكرة الدوار الميتافيزيقي .. **أسطورة النشوء بالصدفة:**

إذا إنتقلنا إلى السؤال المعرفى الذى طرحه على عزت بيجوفيتش وهو السؤال المتعلق بأصل الإنسان يقول: عادة ما يلجأ المؤمنون بالخلق الإلهي إلى الهجوم على نظرية التطور الداروينية التى تؤكد الأصل المادى الصرف للإنسان، محاولين تفنيدها وإثبات "عدم علميتها" ووجود ثغرات فيها، من خلال الإشارة إلى أدلة مادية ونظريات علمية عديدة تدعّم وجهة نظرهم .. ويرى بيجوفيتش أن هذا المدخل فى التفنيد على أهميته ليس مدخلا حاسما .. ذلك لأن دعاة النظرية الداروينية سيأتون هم أيضا بأدلة مادية أخرى، مما يجعل من المستحيل حسم القضية .. ومن ثَمّ يلجأ بيجوفيتش إلى أسلوب مختلف تماما .. فيحاول إثبات عجز النموذج الداروينى فى التطور عن تفسير ظاهرة الإنسان فى سياق الثنائية الجوهرية التى أشرنا إليها، أى ثنائية الإنسانى والطبيعى.

ولأن فرضية الصدفة تقع فى صميم نظرية التطور و فى جميع النظريات المادية الأخرى فإن بيجوفيتش يعمد إليها مباشرة فى محاولة لتقويضها من الأساس .. فيبيّن لنا أنه من المستحيل تصديق فكرة أن العالم قد ظهر نتيجة تفاعلات كيميائية تمت بالصدفة .. وأدت إلى ظهور خلايا بسيطة ثم تطورت إلى أن أصبحت "إنسانا" .. ويؤكد أن خلق العالم بالصدفة هو مجرد افتراض وتخمين لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة .. ومن أشهر إعتراضاته على هذه الفرضية قوله أن الإيمان بها يعادل الإيمان باحتمال أن يقوم قرد بالخبط على آلة كاتبة فيخرج لنا قصيدة رائعة .. أو باحتمال أن

يلقى إنسان (أو قرد) بالنرد فيحالفه الحظ ويأتى 6/6 ليس مرة واحدة ولا ألف مرة وإنما 44 ألف مرة متتالية !! .. كذلك فإن المصادفة وحدها لا تجدى فى تفسير الخلق ، فإن تكوين الكائنات من تلك الذرات الهائمة يعنى أنها كانت مصممة، بحيث أنها إذا اجتمعت بهذه الطريقة يتكوَّن منها ذهب، وإذا اجتمعت بطريقة أخرى يتكون منها ماء، وهكذا ... والمعنى الفلسفي المستخلص هنا هو أنه حتى لو سلمنا بهذه الصدفة فلابد أن نسلم معها أيضا بفكرة التصميم السابق عليها فى الوجود .. والتصميم فعل يتجاوز المادة إلى ماهو وراء المادة ... إن ظاهرة الحياة الجُوّانية أو التطلع إلى السماء ظاهرة ملازمة للإنسان، غريبة عن الحيوان .. وسيظل هذا الجانب من الإنسانية .. وهذه الظواهر المصاحبة للوجود الإنساني مثل: الخير والشر، المقدس والمدنس، الشعور بالفجيعة، الصراع الدائم بين المصلحة والضمير، التساؤل عن وجودنا) تظلّ هذه جميعها مستعصية على أى تفسير منطقى ,. ولكن إنطلاقا من الإيمان بثنائية الإنسان والطبيعة، والاختلاف الجوهرى بين الاثنين، وثنائية الطبيعة البشرية، يبين على عزت بيجوفيتش أن أصل الإنسان لا يمكن أن يكون ماديا فهو ليس نتيجة تطور مادي، وهكذا يصل المسيري فى متابعاته وبيجوفيتش فى تحليلاته إلى هذه الحقيقة المُبهرة .. وهى أن العنصر الروحى فى الإنسان الذى يستعصى على التفسيرات المنطقية المادية لا يمكن أن يوجد إلا بفعل الخلق الإلهى، والخلق ليس عملية مادية وإنما فعل إلهى، ليس شيئًا متطورًا، وإنما هو فعل فجائى (كن.. فيكون). "فمنذ تلك اللحظة المشهودة، لم يعد ممكنا لإنسان أن يختار بين أن يكون حيوانا أو إنسانا، إنما اختياره الوحيد أن يكون إنسانا أو لا إنسان". وبذلك ربط على عزت بيجوفيتش بين الإنسان وبين الله، بمعنى أن الإنسان لا يمكن أن يكون إنسانا إلا بوجود الله، فإن كان الله غير موجود (كما تزعم الفلسفات المادية فى الحضارة الغربية) مات الإنسان، أو كما يقول المسيري بحق : إذا نَسِيَنا الله فإننا ننسى أنفسنا .. مصداقا للآية القرآنية { نسوا الله فأنساهم انفسهم ...}... وقد اكتشف بيجوفيتش (وهو يعيش فى قلب الحضارة الغربية) أن هذه الثنائية الإسلامية من أكبر أسباب سوء فهم العقل الغربي لهذا الدين .. وهو سوء فهم لا يزال مستمرًا إلى هذا اليوم .. "فمن جانب أصحاب الدين [الروحي المجرد] أُتُّهِمَ الإسلام بأنه أكثر مما يجب لُصوقًا بالطبيعة والواقع، وأنه متكيف مع الحياة الدنيا .. واتُّهِمَ من جانب العلم أنه ينطوي على عناصر دينية وغيبيه .. وفى الحقيقة هناك إسلام واحد وحسب، ولكن شأنه شأن الإنسان له روح وجسد .. أما التعارض المزعوم فيه فإنه يتوقف على اختلاف وجهة النظر .. حيث لا يرى الماديون فى الإسلام إلا أنه دين غيبيات ، أى اتجاه ،"يمينى". بينما يرى فيه المسيحيون أنه حركة اجتماعية سياسية، أى اتجاه يساريّ ..! وفى واقع الأمر، ليس الإسلام هذا وحده ولا ذاك وحده ..

وإنما هو يجمع بينهما فى كلّ واحد متكامل متوازن. وتتبدى الثنائية الإسلامية فى اهتمام الإسلام بكل من القراءة والكتابة باعتبارهما أقوى محرك للمجتمعات الإنسانية. فلا "غرابة أن يُعنى بهما الوحى، فكانت أول ما نزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) من آيات القرآن(*) .. وقد تبدو الكتابة غريبة عن الدين (الروحى المجرد) .. فقد بقيت الأناجيل تقليدًا شفهيا لفترة طويلة من الزمن .. وعلى قدر علمنا، بدأت كتابتها بعد جيل كامل من رفع عيسى (عليه السلام). وعلى عكس ذلك فقد إعتاد محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يُملى آيات القرآن على كُتّابِ الوحي فور نزولها.

إنطلاقا من إدراكه لثنائية الإنسان (المادة والروح) يقدم على عزت بيجوفيتش الرؤية الإسلامية للتاريخ .. فيبدأ بنقد مفهوم التقدم المادى الذى يهيمن على الحضارة العلمانية الحديثة، فهذا التقدم لا يؤدى إلى سمو الإنسان، إذ هو منفصل تماما عن القيمة .. إن كل تقدم بيولوجيّ أو تقنيّ فى الإطار المادى الداروينيّ المنفصل عن القيمة يؤدى إلى أن (الأقوى يقهر الأضعف.. بل ويحطمه) ..[والنموذج المشاهد الآن يتمثل بوضوح كامل فى الحرب الإسرائيلية على فلسطين وعلى غزة بصفة خاصة .. وفى الحرب الأمريكية على العراق وأفغانستان ..] ...

فى مقابل ذلك يطرح على عزت بيجوفيتش رؤية مختلفة تماما .. فالحياة(فى تصوّره) ناتجة عن التفاعل المتبادل بين عاملين مستقلين هما: الأساس المادى والتأثير الخلاق لعامل الوعى الإنسانى، متمثلا فى الشخصيات القوية والأفكار الكبرى والمُثل العليا .. فالوضع التاريخيّ فى أية لحظة من الزمن هو نتيجة التفاعل بين هذين العاملين المستقلّين بصفة أساسية، ولذا فالتأثير الإنسانى على مجرى التاريخ يتوقف على قوة الإرادة والوعى. وكلما عظمت القوة الروحية للمشارك فى الأحداث التاريخية كلما عظم استقلاله عن القوانين المادية الخارجية، والعكس صحيح ...

والتاريخ فيما يرى بيجوفيتش قصة متصلة من مجموعات صغيرة من أناس تميزوا بالحسم والشجاعة والذكاء، تركوا طابعا لا يمّحى فى مجرى أحداث التاريخ وتمكّنوا من تغيير مساره. "إن قوة الظروف الموضوعية تتزايد بالنسبة ذاتها التى يتناقص فيها العامل الفردى .. فكلما أصبح هذا (العامل الفردى) خاملا غير فعال نقص قدْره من الإنسانية وزاد نصيبه من الشيئية. إننا نملك القوة

(*) يشير بيجوفيتش بهذا إلى سورة العلق –وهى أول ما نزل من القرآن– الذى فيه الأمر بالقراءة مرتين، كما أن فيه التنويه بنعمة تعليم الإنسان الكتابة بالقلم: "اقرأ بسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم".

على الطبيعة وعلى التاريخ إذا كانت لدينا القوة على أنفسنا .. هذا هو موقف الإسلام من التاريخ" .. [كأن بيجوفيتش يوجه خطابه من عالم البرزخ إلى العرب والمسلمين وقادتهم جميعا فى هذه اللحظة التاريخية المأساوية .. وينبّههم إلى سرّ ضعفهم وهوانِهم وانعدام فاعليتهم وتأثيرهم فى العالم بل فى محيطهم الخاص] ...

ما يؤكّده بيجوفيتش هنا هو أن هدف التاريخ ليس هو التقدم الماديّ وإنما أمر مختلف تماما .. الهدف هو خلق إنسان متسقة روحه وبدنه، فى مجتمع تحافظ قوانينه ومؤسساته الاجتماعية والاقتصادية على هذا الاتساق ولا تنتهكه (ومن ثم؛ فهذا هو أيضا المفهوم الإسلامي للتقدم) .. الإسلام بهذا المعنى هو البحث الدائم عبر التاريخ عن حالة التوازن الجوانى والبرانى .. وهذا هو هدف الإسلام اليوم، وهو واجبه التاريخي المقدّر له في المستقبل .. ولذا فعلى عزت بيجوفيتش يرى أن وحدة الإسلام قد انشطرت "على يد أناس قصروا الإسلام على جانبه الديني المجرد، فأهدروا وحدته، وهى خاصيته التي يتفرّد بها عن سائر الأديان .. لقد اختزلوا الإسلام إلى دين مجرد أو إلى صوفية (فتدهورت أحوال المسلمين). ذلك لأن المسلمين عندما يضعف نشاطهم وعندما يهملون "دورهم فى هذا العالم" يتوقفون عن التفاعل معه، وتصبح الدولة الإسلامية كأية دولة أخرى، ويصبح تأثير الجانب الديني في الإسلام كتأثير أي دين آخر، وتصبح الدولة قوة لا تخدم إلا نفسها. فى حين يبدأ الدين (الخامل) يجر المجتمع نحو السلبية والتخلف، ويشكّل الملوك والأمراء والعلماء الملحدون، ورجال الكهنوت وفرق الدراويش والصوفية، والشعراء السُّكارى.. يشكلون جميعا الوجه الخارجي للإنشطار الداخلي (الذي أصاب الإسلام) .. وهنا نعود إلى المعادلة المسيحية .. " إعْطِ ما لقيصر لقيصر، وما لله لله " .. إن الفلسفة الصوفية (المنكفئة على الأمور الروحية البحتة) والمذاهب الباطنية تمثل –على وجه اليقين– نمطًا من أكثر الأنماط انحرافا فى العالم الإسلاميّ...

يرى على عزت بيجوفيتش أنه من المستحيل تطبيق الإسلام انطلاقا من مستوى واحديّ، ذلك لأن ثنائية الماديّ والروحيّ تقع فى صميمه .. فالصلاة (وهى نشاط روحيّ) لا يمكن أداؤها أداءً صحيحاً إلا من خلال إجراءات علمية " تتمثّل فى ضبط الوقت والاتجاه فى المكان نحو القِبلة، فالمسلمون مع انتشارهم على سطح الكرة الأرضية عليهم أن يتوجهوا جميعا فى الصلاة نحو الكعبة مكيّفين أوضاعهم فى المكان (على اختلاف مواقعهم) .. وتحديد مواقيت الصلاة تحكمه حقائق علم الفلك .. ولابد من تحديد هذه المواقيت للصلوات الخمسة) تحديدًا دقيقا خلال أيام السنة كلها ..

ويقتضى هذا تحديد موقع الأرض فى مدارها الفلكى حول الشمس" .. ولا يختلف الأمر كثيرًا بالنسبة للزكاة التى تحتاج إلى إحصاء ودليل وحساب .. كذلك الحج الذى يتطلب الإلمام بكثير من الحقائق التى يحتاجها المسافر إلى مسافات بعيدة .. ولعله بسبب هذه الثنائية تطورت جميع الميادين العلمية فى القرن الأول الإسلامي .. إذ أنها بدأت بمحاولات إقامة الفرائض الإسلامية .. ولهذا يؤكد بيجوفيتش أنه لا يمكن تطبيق الإسلام وممارسته ممارسة صحيحة فى مجتمع متخلّف .. والسبب ببساطة أن هذا المجتمع سوف يتخلّى عن تخلّفه فور شروعه فى ممارسة شعائره .. هنالك سيجد نفسه تلقائيا على عتبة الحضارة ...

يثير بيجوفيتش هنا سؤالا بالغ الأهمية فيقول: هل الزكاة مجرد ضريبة برّانية لمساعدة الفقراء مثل الضرائب التي تفرضها الدولة العلمانية الحديثة ..؟ ويجيب عن هذا السؤال بالنفي .. فالزكاة تحوى العنصرين: البرانيّ والجُوّانيّ.. المادي والروحي .. ذلك لأن الفقر فى نظر بيجوفيتش ليس قضية إجتماعية بحتة .. فسبب الفقر ليس العوز فى حد ذاته فقط، وإنما يكمن أيضا فى الشر الذى تنطوى عليه النفوس البشرية .. فالحرمان هو الجانب الخارجي للفقر، أما جانبه الباطني فهو الإثم (أو الجشع الذى نجده فى طبقة الأغنياء المترفين) .. وإلا فكيف نفسّر وجود الفقر في المجتمعات الثرية" ...

ويشير على عزت بيجوفيتش إلى ظاهرة فريدة في العالم الإسلامي، وهى ظاهرة الأوقاف، التي يصفها بأنها ثورة هادئة حدثت نتيجة لإصرار التعاليم الإسلامية على الإنفاق و العطاء.. "فلا تكاد توجد دولة إسلامية واحدة ليست فيها ممتلكات كبيرة مخصصة للأوقاف وخدمة الخير العام .. حقيقةً أن الوقف لم يُذكر في القرآن، ولكنه لم يظهر في المجتمعات الإسلامية بمحض الصدفة، إنما كان ظهوره نتيجة لسيادة روح التضامن، ولتأثير وظيفة الزكاة التعليميّ في المجتمعات المسلمة ...

يرى على عزت بيجوفيتش أن المسلمين لا يزالون حائرين فى موقفهم أمام الحضارة الغربية بين اختيارين كلاهما صعب: الرفض التام للحضارة أو اتّباعها اتّباعًا أعمى.. وهو ينصح المسلمين بتجاوز هذين الإختيارين فكلاهما خطر على المجتمعات المسلمة .. ذلك لأن من يرفض الحضارة الغربية برُمّتها سيبقى ضعيفا إلى الأبد .. ومن يأخذها كلها بلا تمييز بين غثّها وثمينها فسوف يفقد هويّته ويسقط فى عالم التّيه والضلال .. ولا ينبغى أن يغيب عن وعينا أن الحضارة الغربية فى واقع الأمر ليست إحتكارا لأمّة واحدة أو لجنس واحد .. إنما هى ثمرة جهود علماء كثيرين ينتمون الى أديان مختلفة وشعوب مختلفة .. وهى حصاد كل الحضارات السابقة عليها .. وأن قوة الغرب الحقيقية لا تكمن فى تفوّقه العسكري والاقتصادي فحسب .. فهذا هو الجانب البرّانى منها أما جانبها الجُوّانى فيتجلى فى التفكير النقديّ .. وهذا هو ما يجب ان نتبنّاه على الفور ونُتْقِنَـهُ ...

أما النقل الحرْفيّ لمنتجات الحضارة الغربية وتقليدها تقليدًا أعمى كما هو شائع فى بلا نا اليوم فيحذّرنا منه بيجوفيتش ، لأنه يصيب الناقل المقلّد بآفةٍ تكمن فى روحه وثقافته من جرّاء تبَنّيه لنفس الصورة التاريخية للعالم .. وهى الصورة الغائرة فى أعماق هذه الحضارة ..فكراهية الإسلام جزء من هذه الروح والثقافة الغربية التى تغذّت قرونا بأ حقاد الحروب الصليبية والغزوات الإستعمارية التى تلتْها على العالم المسلم ، وتشرُّب هذه الروح العدائية للإسلام من جانب بعض المسلمين يخلق عقدة نقص نلمسها فى أجيال من الشباب الذين تعلموا فى الغرب وانبهروا بقوته وتقدّمه ، ومن هنا جاء احتقارهم لمجتمعاتهم المتخلّفة .. ورفضهم لثقافتهم الإسلامية .. واذا قمنا بدراسة الصراع الدائر اليوم فى المجتمعات المسلمة فسوف نتبيّن أن جوهر الصراع فيه يدور بين دعاة الحداثة المنحازين للغرب وبين المحافظين التقليديين .. ويرى بيجوفيتش أن هذا الصراع هو الذى مزّق المجتمعات المسلمة وانتهى بها إلى نهاية مأساوية محزنة ...

فكرتان عظيمتان :

يعرض بيجوفيتش هنا لفكرتين تشق اليوم طريقهما بقوة فى الفكر الغربيّ .. فى محاولة لجذب انتباه المسلمين إليهما .. من أجل تواصل أفضل وحوار أجدى .. يقول: أودّ هنا أن أعرض لفكرتين عظيمتين معاصرتين انبثقتا فى الفكر الغربى : يدعو الى الفكرة الاولى(كارل بوبر) فى كتابه: (مجتمع مفتوح وأعداؤه) .. من سمات هذا المجتمع الأساسية : حرية الفرد.. والنمو الشخصى .. والتفكير الحر .. والحق فى نقد النظم السياسية .. والتبادل الحر للآراء .. ولست أجد فى دين المسلمين ما يحول بينهم وبين الأخذ بهذه الفكرة .. وإضافة الى ذلك فإن بوبر يحث على التسامح ويقف ضد السلوك البربرى فى اوروبا الذى يعانى منه المسلمون فى القارة ...

أما الفكرة الثانية فتتمثل فى الدعوة إلى عصر نهضة ثانٍ فى أوروبا .. صاحب هذه الفكرة هو الفليسوف الألمانى ويتساكر Weizsacker .. يتميز هذا العصر الذى يتطلّع إليه عن عصر النهضة الأول فى أنه يتوجّه إلى عوالم وثقافات خارج أوروبا .. هذا التحّول الجديد نحو الخارج .. والانفتاح على ثقافات شعوب العالم يجعل للإ سلام وثقافته جاذبية و موضوعا محتملا للحوار فى إطار الاهتمام الأوروبى .. وفى هذا المجال يسوق عزت بيجوفيتش آية قرآنية من سورة المائدة لها دلالة ملفتة للنظر: { لكل جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا .. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .. ولكن ليبلوَكم في ما آتاكم .. فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون } (آية 48 سورة المائدة) .. ويعلق عزت بيجوفيتش على هذه الآية فيقول: نحن لا نستطيع أن ندخل فى حلبة السباق إلى الخيرات .. ونُقتـ ..ع الآخرين بجدارتنا وبما نملك من قِيَمٍ عظيمة مالم نقوّى هُويّتنا .. أو بالأحرى وعْينا بهويّتنا الخاصة .. فالمسلمون الواعون وحدهم هم القادرون على الأخذ والعطاء دون ان يلقوا بقيمهم الإسلامية وراء ظهورهم .. أما الذين انسلخوا من هويّتهم و وطّنوا أنفسهم على الأخذ فقط فهؤلاء هم المتسوّلون الذين لا يحظوْن باهتمام الآخرين أو إحترامهم ...

مسلم أوروبى:

فى لقاء مع مندوب صحيفة (تشيرن) الألمانية فى 5 نوفمبر 1994 سأله الصحفى: "السيد الرئيس أنت معروف كمسلم حريص على التقاليد الأوربية والتسامح الأوربى .. والمنفتح على العالم بأسره .. ولكن هناك تقارير فى الصحافة الأوربية تقول إن هناك الآن أسلمة جارية فى البوسنة والهرسك ... فهل هذه مجرد شائعات.. ؟ .. يجيب عزت بيجوفيتش: سوف أكون معك شديد الصراحة وأقول لك: لا ليست هذه شائعات بل حقيقة .. فالعودة إلى الدين أصبحت ظاهرة عالمية فى كل مكان تمكّن الشيوعيين فيه من قمع الدين، على مدى خمسين إلى سبعين سنة ماضية .. نعم هناك أسلمة فى البوسنة كما تسميها .. وهى صحوة إسلامية ولكن هناك فى البوسنة بنفس القدر صحوة أرثوذكسية وصحوة كاثوليكية .. والفرق أن عودة المسيحيين الى دينهم لم تلفت نظر أوروبا المسيحية .. وهذا أمر أفهمه ولا ألومها عليه .. ولكننى أود فقط أن اصحّحك فى نقطة واحدة وهى أن تسامحى الذى تتحدث عنه ليس مرد ه إلى كونى أوروبى وإنما مصدره الأصيل هو الإسلام .. فإذا كنتُ متسامحا حقا كما تقول فذلك لأننى أولا وقبل كل شئ مسلم ثم بعد ذلك أوروبي ..

ويتابع بيجوفيتش شارحا لرؤيته فيقول: لقد لاحظت من تجربتى فى حرب البوسنة أن أوروبا لديها أوهام تعجز عن التحّرر منها .. رغم الحقائق الدامغة .. فقد دُمّرت أثناء هذه الحرب مئات المساجد والكنائس كلها بلا استثناء، دمرها مسيحيون ولم يدمّر المسلمون كنيسة واحدة .. وقبل ذلك حكم الأتراك العثمانيون(وهم مسلمون) البلقان خمسمائة سنة فلم يهدموا كنيسة ولا أبادوا شعبا من الشعوب .. وحافظوا على الآثار المعمارية كلها.. وعلى الأدْيِرة الشهيرة فى جبال (فروشكا جورا) القريبة من بلجراد .. ولكن هذه الأديرة نفسها لم تصمد ثلاثة أعوام فقط تحت الحكم الأوروبى .. فقد دمّرها الشيوعيون والفاشيون خلال الحرب العالمية الثانية ... ولم يكن هؤلاء الشيوعيون والفاشيون الذين إرتكبوا هذه الجريمة من آسيا، بل من قلب أوروبا .. وحتى هذه اللحظة لم تُبْدِ أوروبا حساسية كافية ضد الفاشية المتصاعدة فى البلقان .. بل وقفت تتفرج على الدمار والقتل الوحشي الذى إرتكبه الصرب فى البوسنة .. إننى أعتزّ بأ وروبا وأحمل لها كل تقدير .. وأنا نفسي أوروبي .. ولا أستطيع ان أتخلّص من جلدى .. ولكنّى أقرّر أن أوروبا لديها فكرة عن نفسها أعلى بكثير من حقيقتها ...!!

محمد يوسف عدس

خبير سابق ومستشار بمنظمة اليونسكو

القاهرة: 22يناير 2009